﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾ [البقرة: 21-22]

❁ مُنَاسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُمَا:

بَعْدَ أن ذُكِرَتْ أحوالُ كلِّ فريقٍ مِنَ المؤمنين والكافرين والمنافقين، وضُرِبَت الأمثالُ، صلَحَ المقامُ لخطابهم جميعًا بما ينفعهم إرشادًا لَهُمْ ورحمةً بِهِمْ؛ فإنَّه لا يرضى لَهُمُ الضَّلال، ولم يَكُنْ ما ذُكر مِن سُوءِ صنيع الكافرين والمنافقين مانعًا من إعادة إرشادهم ووعْظِهِم، فكان هذا الخطابُ تأنيسًا لأنفسهم بعدَ ما هدَّدهم وذمَّهم؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّ الإغلاظ عَلَيْهِمْ إنَّما كان حرصًا على صلَاحِهِم[1].

بعد ذِكْر المؤمنين والكافرين والمنافقين، صلح المقام لخطابهم وإرشادهم

قال أبو السّعود في إيضاح مناسَبة الآيتين لما قبلهما: "إثْرَ ما ذَكَرَ اللَّه تَعالى عُلُوَّ طَبَقَةِ كِتابِهِ الكَرِيمِ وتَحَزُّبَ النّاسِ في شَأْنِهِ إلى ثَلاثِ فِرَقٍ: مُؤْمِنَةٍ بِهِ مُحافِظَةٍ عَلى ما فِيهِ مِنَ الشَّرائِعِ والأحْكامِ، وكافِرَةٍ قَدْ نَبَذَتْهُ وراءَ ظَهْرِها بِالمُجاهَرَةِ والشِّقاقِ، وأُخْرى مُذَبْذَبَةٍ بَيْنَهُما بِالمُخادَعَةِ والنِّفاقِ، ونَعَتَ كُلَّ فِرْقَةٍ مِنها بِما لَها مِنَ النُّعُوتِ والأحْوالِ، وبَيَّنَ ما لَهم مِنَ المَصِيرِ والمَآلِ، أقْبَلَ عَلَيْهِمْ بِالخِطابِ عَلى نَهْجِ الِالتِفاتِ هَزًّا لَهم إلى الإصْغاءِ، وتَوْجِيهًا لِقُلُوبِهِمْ نَحْوَ التَّلَقِّي، وجَبْرًا لِما في العِبادَةِ مِنَ الكُلْفَةِ بِلَذَّةِ الخِطابِ، فَأمَرَهم كافَّةً بِعِبادَتِهِ، ونَهاهم عَنِ الإشْراكِ بِهِ"[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/323-324.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 1/58.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾: العينُ والباء والدَّال تدورُ أكثرُ تصاريفها على لِينٍ وَذُلٍّ[1]، ومِنْهُ قولُهم: طريقٌ مُعَبَّدٌ، أي: مُذَلَّل من كثرة وطء الأقدام عَلَيْه، قال طَرَفَةُ[2]:

تُبَارِي عِتَاقًا نَاجِيَاتٍ وَأَتْبَعَتْ *** وَظِيفًا وَظِيفًا فَوْقَ مَوْرٍ مُعَبَّدِ

والعبادة شرعًا لها اعْتِبَارَانِ:

أحدهما: باعتبارِ ذاتِ الْفِعْلِ؛ وَهُوَ التَّعبُّدُ؛ وحَدُّها: الخضوعُ للّٰه تعالى بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ محبةً وتعظيمًا[3].

والآخر: باعتبار المُتعَبَّدِ به؛ وهو العبادة؛ وحَدُّها: اسْمٌ جَامع لكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللّٰه ويرضاه من الأَقْوَال والأعمال البَاطِنَة وَالظَّاهِرَة[4].

2) ﴿خَلَقَكُمۡ﴾: الخاء واللَّام والقاف تدلُّ مُعْظَمُ اشتقاقاتها على تقدير الشَّيء[5]، ومِنْهُ قَوْله تعالى: ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكٗا﴾ [العنكبوت: 17] أَيْ: تُقَدِّرون كَذِبًا[6]، وقد يكون بمعنى الافْتِرَاء[7].

وخَلَقَ اللّٰه الشَّيْء: أوجدَهُ وأنشأَهُ بعد أَن لَمْ يَكُن[8].

3) ﴿فِرَٰشٗا﴾: الفاء والرَّاء والشِّينُ تَدُلُّ تصاريفها على تمهيدِ الشَّيْءِ وبسطه[9]، يقال: فرشَ الشَّيْءَ يفرُشُهُ؛ إذا بسَطَهُ[10].

وَحَقِيقَة الفَرْش: الاسْتِوَاءُ، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ أي: مستويةً[11]، وهو لازمٌ لمعنى البَسْطِ، ومِن لوازمه أيضًا: الاستقرارُ؛ إذِ الأرضُ المستويةُ المُنْبَسِطَةُ يُسْتَقَرُّ عَلَيْهَا.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عبد).
(2) ديوان طرفة، شرحه: مهدي محمد ناصر الدّين، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط2، 1423، ص: 20.
(3) ابن عثيمين، القول المفيد: 1/14.
(4) ابن تيميَّة، العبوديَّة، ص: 44.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلق).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خلق).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (خلق).
(8) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (خلق).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرش).
(10) الزَّبيديّ، تاج العروس: (فرش).
(11) ابن سيده، المخصّص: (فرش).

4) ﴿رِزْقًا﴾: الرَّاء والزَّاي والقاف تَدُلُّ على العطاء[1]، فالرِّزْقُ: العطاءُ، أو هُوَ ما يُنْتَفَعُ به[2].

5) ﴿أَندَادًا﴾: الأَنْدَادُ جمع ندٍّ، والنِّدُّ: ما كانَ مِثْلَ الشَّيْءِ يُضادُّه في أُمُورِه[3]، فَالنِّدُّ اجتمع فيه أمران: أحدهما: المِثْلُ والمشابهَةُ. والآخر: الضِّدُّ والمخالفة.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

هذا أول نداء في القرآن، وفيه ينادي الحقُّ جلَّ وعلا النَّاسَ جَمِيْعَهُمْ نِدَاءً لَطِيفًا مُفَادُهُ: أن يا معشرَ الإنسِ والجنِّ؛ وَحِّدوا اللّه وأفردوه بالعبادة فهو الذي ربَّاكم بالنِّعَمِ، وأوجدَكم مِنَ العدمِ، وأوجدَ مَنْ كان قبلكم لأجل أن تكونوا مِنَ المُتَّقِين.

والرَّبُّ المأمورُ بعبادَتِه هو الذي سهَّل لكمُ الحياةَ في الأرضَ بأَنْ جَعَلَهَا بساطًا ومهادًا يمكن الاسْتِقْرَار عَلَيْهَا، وجعل السَّماءَ سقفًا مُحْكَمَ البِنَاءِ، وأنزل مِنَ السَّحاب ماءً كان سببا في نباتِ صُنوفٍ مِنَ الثَّمرات؛ لتكون رزقًا لَكُم، ومَن كان هذا شأنَهُ؛ فهو المُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادة وحده دُونَ مَا سِوَاه، فلا تجعلوا له نُظَرَاء في العبادة تَصْرِفُون لَهُمْ شيئًا مِنْهَا، والحالُ أَنَّكُم تعلمون تفرُّدَهُ باستحقاق العبادة؛ لتفرُّدِهِ بالرُّبوبيةِ[4].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

النِّدَاءُ بِـ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾؛ لِعُلُوِّ مَكَانَةِ الْمُنَادِي، وَعِظَمِ شَأْنِ مَوْضُوعِ النِّدَاءِ:

وقع النِّداء بـ (يا) في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وهي موضوعةٌ في الأصل لنِدَاء البعيد، ونداءُ اللّه تعالى لعبيدِه نِدَاءٌ مِنَ الخالق إلى خَلْقِه، فهو حقيقٌ بأَنْ يَكُونَ بأداة النِّداء لِلْبَعِيد.

عَظَمَةُ اللهِ ﷻ وَعَظَمَةُ خِطَابِهِ

فمجيءُ أداة النِّداء لِلْبَعِيد ههنا لأوجُهٍ ثلاثةٍ[5]:

أحدها: لبُعْدِ ما بين الخالِقِ والمَخْلُوقِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رزق).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (رزق).
(3) الخليل، العين: (ند).
(4) الواحديّ، الوجيز، ص: 95، والسّمعانيّ، تفسير القرآن: 1/56-58، وابن أبي زمَنِين، تفسير القرآن العزيز: 1/127، وجماعة من علماء التَّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 4، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 4.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/154-155.

ثانيها: أنَّه نداء مِنَ الخالِقِ، وهو مُقْتَضٍ أعلَى العلُوِّ.

ثالثها: عِظَمُ شأن موضُوع النِّداءِ وهو العبادة؛ فإنَّ له جلالًا وخطرًا[1].

وفي استعمالِ خصوص النِّداء بـ (يَا أَيُّهَا) ضربٌ مِنْ توكيد النِّداء؛ لأنَّ (أَيّ) اسمٌ مُبْهَمٌ يَفْتَقِرُ إلى ما يُزيلُ إبهامَه، ولذا يُذْكَرُ بعده اسمٌ يُوضِّحُهُ لِيَصِحَّ المقصود بالنِّداء، وهذا تدرُّجٌ مِنَ الْإِبْهَامِ إلى البيانِ، وَفِيهِ نوعُ توكيدٍ[2].

وفي اقترانِه بـ (ها) التَّنبيهِ: زيادةٌ في التَّوكيدِ؛ إذِ النِّداءُ في الأصل يُرادُ به التَّنبيهُ[3].

نُكْتَةُ الِالْتِفَاتِ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ:

تَرْغِيبُ العِبَادِ فِي الْإِقْبَالِ عَلَى اللهِ تَعَالَى

الالتفاتُ في قوله جَلَّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ هو التفاتٌ مِنَ الغَيْبَة إلى الخطاب؛ لأنَّ الكلامَ عن أصناف النَّاسِ الثَّلاثة كان بلفظ الغَيبةِ، ثُمَّ خُوطِبَ الجميعُ بالنِّداء[4].

والنُّكْتَةُ في ذلك: الإيذانُ بأنَّهم صارُوا بما تقدَّم مِن ضَرْبِ الأمثال وغيرِهَا أهلًا لأَنْ يُوَجَّه إِلَيْهِمُ الخطاب؛ "تَنْشِيطًا لَهُمْ في عبادته، وترغيبًا وتحريكًا إلى رَفْعِ أنفُسِهم بإقبال المَلِكِ الأعظم عَنِ الخضوع لِمَنْ هو دونه، بل دونهم، وبِشارة لمن أقبل عَلَيْه بعدَ أن كان مُعْرِضًا عَنْهُ بدوام التَّرْقِيَة"[5]، فهو من قبيل إنشاءِ معنًى جديد، وبناءِ صرحٍ من حَديد، فكأنَّه قيل: اطوُوا صفحةَ السَّابق، وابدؤُوا العبادَةَ الحقَّةَ، بالأوصافِ المُستَحقّة.

مَعْنَى اللَّامِ فِي ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

الخطابُ موجَّهٌ للنّاس كلهم

اللَّامُ في (النَّاسِ) مِنْ قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ لِاستغراق

(1) يُنظر في سِرِّ كثرة النِّداء بِـ (يَا أَيُّهَا) في القرآن الكريم: أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/58.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/89، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/58.
(3) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 2/291.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/66.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/136.

الجِنسِ[1]؛ فإنَّه خطابٌ لجميع العبادِ، إذَا حملنا النَّاس على العمومِ كما هو قولُ ابن عبَّاسٍ [2] رضي الله عنهما.

المَجَازُ المُرْسَلُ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ التَّوْحِيدِ بِالعِبَادَةِ:

الإِخْلَاصُ شَرْطٌ فِي صِحَّةِ العِبَادَةِ الشَّرْعِيَّةِ

قوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ أي: وحِّدُوه[3]، والتَّعبير عَنِ التَّوحيد بالعبادة مِن المجاز المُرْسَلِ بعلاقة المَلْزُومِيَّة؛ فإنَّ العبادةَ الشَّرعية المعتدَّ بها يلزَمُ فيها التَّوْحِيدُ؛ فالتَّوحيد شرطٌ في صحَّتِهَا.

ونكتة التَّعبير بالمجازِ ههنا: التَّنبيهُ على عِظَمِ شأن التَّوحيد، ومنزلته مِنَ العبادَةِ.

إِيثَارُ عُنوانِ الرُّبوبيَّةِ على الأُلوهيَّة:

مِنْ أَسَالِيبِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الِاسْتِدْلَالُ بِالرُّبُوبِيَّةِ عَلَى الْأُلُوهِيَّةِ

في التَّعبير باسم الرَّبِّ في قوله: ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ -على ما هو الأكثر مِن اقتران (النَّاس) باسم (الرَّبِّ)-؛ لأنَّه أمرٌ لجميع النَّاسِ: مؤمنِهم وكافِرِهم، فكان يَجْمُلُ فيه التَّعبير باسم الله (الرَّبِّ)؛ وذلك لنُكْتَتَيْن:

إحداهما: لِمَا يُشْعِرُ به مِنَ التَّربيةِ بالإحسان والإنعام، وفي ذلك تَهْيِيجٌ لِلْمَأْمُورِين على امتثالِ الأمر[4].

والأخرى: إقامة البرهان على استحقاقِهِ العِبَادةَ؛ إذْ فيه استدلالٌ بربوبيَّتِه سبحانه على ألوهيَّتِهِ.

إِفرادُ اسمِ الرَّبِّ وإِضَافَتُه إلى ضميرِ المخاطَبين:

اخْتِصَاصُ اللهِ تَعَالَى بِأَحَقِّيَّةِ الْعِبَادَةِ

إفرادُ اسم (الرَّبِّ) دالٌّ على أنَّ المرادَ ربُّ جميع الخلق وهو اللهُ تعالى؛ إذْ لا يوجد مَن يستحقُّ هذا الاسمَ مفردًا ومضافًا إلى جميع النَّاس إلَّا هُوَ سبحانه[5]، وإضافةُ اسم الرَّبِّ إلى ضمير المخاطبين:

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/325.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/42.
(3) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 1/56.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/67.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/326.

يُفيدُ زيادةَ اختصاصه سبحانه بأحقيَّةِ العبادةِ، وهي -أي: الإضافة- أخصرُ طريقٍ في الدّلالة على هذا الاختصاص مِنَ الْمَوْصُول[1].

نُكْتَةُ الْوَصْفِ: زِيَادَةُ الْبَيَانِ:

مِـنْ مُـوجِـبَـاتِ اسْتِحْقَاقِ اللهِ تَعَالَى لِلْعِبَادَةِ أَنَّهُ خَلَقَ الْخَلْقَ

(الذي) مِن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾: اسم موصولٌ في محلِّ نصبٍ نعتٌ لـ (رَبَّ)[2]، وفائدةُ الوصف مع صلتِهِ: زيادةُ بيانٍ لمُوجِب العبادةِ، أو زيادةُ البيانِ لِمَا اقتضتْهُ إضافة اسم الرَّبِّ إلى ضمير المخاطبين مِن معنى الاِخْتِصَاصِ الآنفِ الذِّكْرِ[3].

فَائِدَةُ دُخولِ حرفِ الابتداءِ فِي صِلَةِ الموصُول:

دلالـــة (مِـــنْ) عَـلَى التَّوْكِيدِ، وَلِـلْإِشَـارَةِ إِلَى عُمُومِ الْخَلْقِ

وقع التَّعبيرُ بـ ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ دون (والذين قبلَكم) بزيادة (مِنْ) لفائِدَتَيْنِ[4]:

إحداهما: توكيدُ المعنى وتَقْوِيَتُهُ، وهو المعنى الغالب على (مِنْ) الواقعةِ مَعَ (قَبْلُ) و(بَعْدُ).

والأخرى: الإشارةُ إلى أوَّلِ الموصُوفِينَ بالقَبْلِيَّةِ؛ إذْ إنَّ من معاني (مِنْ) الابتداءَ.

فيكون قد ذَكَرَ المخلوقين الحاضِرين، وأوَّل المُتَّصِفين بالمخلوقيَّةِ، وما بينَهما مُستحضَرٌ بِذِكْرِهِمَا؛ إذِ البَيْنُ مُسْتَحْضَرٌ عِنْدَ ذِكْرِ الطَّرفَيْنِ، فقد جَمَعَ النَّظمُ الخَلِيقَةَ مِنْ مَبْدَئِها حتى مُنْتَهَاهَا، فدلَّ حرفُ الاِبْتِدَاءِ على البَدْءِ، ودَلّ الخطابُ الشَّاملُ لجميع النَّاس على المُنْتَهَى، فهو جامعٌ لِلْبَشَرِيَّةِ فِي هَذَا الخِطَابِ.

بَلاغَةُ التَّصْدِيرِ:

قُـــوَّةُ ارْتِـبَـاطِ الفَاصِلَةِ بِصَدْرِ الآيَةِ لِتَقُومَ مَقَامَ الْعِلَّةِ لِلْمُعَلَّلِ

فُصل قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ لأنَّهُ ظاهرٌ في التَّعليلِ[5]،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/327.
(2) محيي الدِّين الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/53.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/327.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/327.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/328.

والـمُعَلَّلُ هو الأمر بعبادة الله سبحانه في قوله قبلُ: ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾، وضعَّفه الزَّمخشريُّ، وجعل متعلَّقَ ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ هو ﴿خَلَقَكُمۡ﴾؛ لأنَّ تعليقَها بـ ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾ يُؤدِّي إلى تنافُرٍ في النَّظْمِ يُنزَّهُ القرآنُ عَنْهُ؛ وذلك أَنَّ التَّقْوَى هي العبادةُ[1]، فيكون التَّقدير: اعبدُوا اللَّه لعلَّكم تعبدون، وهذا لا تَجْمُلُ إرادتُهُ في فصيحِ الكلَامِ، بَلْهَ كلامَ اللَّه ﷻ.

وأجاب أبو حيَّانَ بأنَّ العبادةَ ليستْ نَفْسَ التَّقوى؛ إذْ إنَّ التَّقوى في الأصل: الاحْتِرَازُ عَنِ الـمَضَارِّ، بخلاف العبادة؛ فإنَّها موافَقَةُ خِطَابِ الشَّرع امْتِثَالًا لِلْمَأْمُورِ واجتنابا لِلْمَنْهِيِّ عَنْهُ؛ فكأنَّ معنى ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ إذا عُلِّق على الأمرِ بالعبادة: اعبدوا اللَّه لِتَحْتَرِزُوا عَنْ عِقَابِه[2].

فَائِدَةُ حَذْفِ الْمَفْعُولِ:

حُذِفَ الـمَعْمُولُ من قوله: ﴿تَتَّقُونَ﴾ تكثيرًا لِلْمَعَانِي، وَلِبَيَانِهِ ثَلَاثَةُ مَسَالِكَ:

تَكْثِيرُ الـمَعَانِي بِوَجَازَةِ الأَلْفَاظِ مِنْ بَرَاعَةِ النَّظْمِ وَأَدِلَّةِ الإِعْجَازِ

الأوَّلُ: أن يُقدَّر مفعولٌ خاصٌّ، والمعنى: لعلَّكم تَتَّقون عقابَهُ[3].

الثَّاني: ألّا يُقدَّر مفعول خاصٌّ؛ لإفادة العموم، والمعنى: لعلَّكُم تَتَّقُونَ جميعَ ما أُمِرْتُم شرعًا باتِّقائِه.

الثَّالث: أَنْ يُنَزَّلَ الفعل المتعدِّي منزلة اللَّازم، فلا يُقَدَّرُ له مفعول أصلًا، ومعنى ﴿تَتَّقُونَ﴾ على هذا: تحصلُ لَكُمُ التَّقوَى.

والأوجه المتقدِّمةُ مآلُهَا واحدٌ؛ إذْ إنَّ تقديرَ المفعولِ الخاصِّ لا يتنافى مع العموم، وذلك بِحَمْلِ الخاصِّ على التَّمثيل، وهو من طرائقِ التَّفسير اللَّطيف، وهذان الوَجْهان لا يَتعارَضَان مع تَنزيلِ المتعدِّي مَنْزِلةَ اللَّازم؛ إذْ إنَّ تحصيلَ مَلَكَةِ التَّقوى الكاملةِ لا يكونُ إلَّا باتِّقاء جميعِ ما أُمِرَ العبدُ باتِّقائِه، فيكونُ تنزيلُ الفعْلِ المتعدِّي منزلةَ اللَّازم كالنَّتيجةِ لتقديرِ المحذُوفِ.

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/93.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/156-157.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/162.

النُّكْتَةُ البَلَاغِيَّةُ مَجْمَعُ الْأَوْجُهِ النَّحْوِيَّةِ:

اتِّفَاقُ الْأَوْجُهِ النَّحْوِيَّةِ فِي إِنْشَاءِ مَعْنَى التَّعْظِيمِ وَالثَّنَاءِ

اختلف النُّحاةُ في إعرابِ الاسمِ الموصولِ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ عَلَى قولَيْنِ رَئِيسَيْنِ:

الأوَّل: أَنْ يَكُونَ في محلِّ نصبٍ نعتًا، وَنَصْبُهُ حينئذٍ على المدح والتَّعظيم[1].

الآخَرُ: أن يكون في محلِّ رفعٍ؛ فيكون خَبَرًا لمبتدأٍ محذوفٍ، ويُستفادُ مِن ذلك المدحُ والتَّعظيمُ أيضًا[2].

وهذان الوجهَانِ أفَادَا معنى التَّعظيم والمدح، أحدهما: بالجُمْلَةِ الفعليّةِ، والآخرُ: بِالاسْمِيَّةِ، وَأفاد أحدُهما تجدُّدَ التَّعظيم والمدحِ، وأفادَ الآخرُ الثَّباتَ والدَّوامَ، فَهُمَا وَجْهَانِ مُتَكَامِلَانِ يأخذُ أَحَدُهُمَا بِحُجَزِ الآخَرِ.

عِلَّةُ اخْتِلَافِ النَّظْمِ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ:

نَوْعُ السِّيَاقِ وَأَثَرُهُ فِي إِبْرَازِ المَعْنَى البَيَانِيِّ المَقْصُودِ

قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾، ولم يقل: (لكُم ولمن قَبْلَكُم) كما قال قبلُ: ﴿خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، وذلك لِنكَاتٍ ثلاثٍ[3]:

الأولى: أَنَّهُ مِن باب الاكتفاءِ، وإلَّا فهو مرادٌ، والقرينةُ على المحذوفِ: الآيةُ قبلَهُ.

الثَّانية: أَنَّهُ مِن باب التَّغليب، فغُلِّبَ المخاطبونَ على الغائبينَ.

الثَّالثة: أَنَّ الآيةَ خرجت مخرجَ الامْتِنَانِ بجعل الأرض فراشًا، والمخاطبُونَ هُمُ الْمُنْتَفِعُونَ بالأرض على هذا الوجهِ، وأمَّا من قبلَهُمْ فَهُمْ تَحْتَهَا قَدْ ماتُوا.

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/93.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/68.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/69.

بَراعَةُ التَّشبيه البَليغِ:

اجتماعُ الأرضِ والسَّماءِ في أسلوبٍ واحدٍ من التَّشبيه مع تَبايُنِهما دليلٌ على مُكنة النَّظم

شُبِّهَتِ الأرضُ بالفراش، والسَّماءُ بالبِناء في قولِهِ الله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾؛ فمعنى ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ أي: كالفراش، ومعنى ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي: كالبناءِ.

ووجْهُ الشَّبه في الأوَّل: هو التَّمكُّنُ مِنَ الاِسْتِقْرَار[1]، والانتفاعُ والرَّاحةُ والسُّهولةُ.

ووجه الشَّبَه في الثَّاني: الوقاية مِنَ الأضرار النَّازلة، فكما أنَّ البِنَاء المعروف يَقِي من أضرارٍ تَنْزِلُ من فوقُ، فكذلك السَّماءُ تقِيَ أضرارًا نازلةً[2].

فَنُّ الاِكْتِفَاءِ:

اتِّحادُ المقصدِ في الاِمْتِنَانِ

حُذِفَ الفعلُ ﴿جَعَلَ﴾ والجارُّ والمجرور (لَكُمُ) مِن قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾؛ اكتفاءً بذِكْرِهِ مع الأرض، فذِكْرُهُ أَوَّلًا دليلٌ على حذفِهِ ثانيًا، وهو دليلٌ على اتِّحاد المقصدِ في الاِمْتِنَان.

نُكتةُ وَضْعِ المُظْهَرِ مَوْقِعَ المُضْمَرِ:

أُظْهِر لفظ (السماء) لاختلاف المراد بالسَّماوَيْن

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ إظهارٌ في موضع الإضْمَار[3]؛ إذْ مُقْتَضى الظَّاهر أن يقال: (وأنزل مِنْهَا ماءً)، إلَّا أنَّهُ أُظْهِرَ لاختلاف المراد بالسَّمَاوَيْن، فإنَّ الأولى هي البِنَاءُ الذي يَظْهَرُ في رَأْيِ العَيْنِ نهارًا أَزْرَقَ، والثَّانية: يُراد بها السَّحابُ.

تَنْكِيرُ (مَاءً) لِبَيَانِ البَعْضِيَّةِ:

كَثْرَةُ مَنَافِعِ المَاءِ النَّازِلِ مِنَ السَّمَاءِ

تنكير الماء في قوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ لِلْبَعْضِيَّة[4]؛ أي: أنَّ هذا الماء النَّازلَ هو بعضُ نِعَمِهِ، وليس الماءُ النازلُ إلَّا بعضًا من مياهٍ كثيرةٍ[5].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/331.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/331.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/61.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/94.
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/159.

وعبَّر جماعةٌ مِنْهُمُ الشَّوكانيُّ عن غرضِ التَّنكير في مثل هذا ببيان النَّوعيَّة[1]؛ أي: نوعًا من أنواع الماء، والغالب أنَّ النَّوعيَّةَ إذا أُطْلِقَت - بوصفهَا غرضًا - فإنَّه يَلزم مِنْهَا التَّعْظِيمُ؛ أي: أنَّه نوعٌ عظيمٌ، كأنَّه لعظمَتِهِ مخالفٌ المعهودَ مِنَ الأنواع.

وقد يُقال بالجمع بين الغَرَضَيْنِ المذكُورَيْنِ لعَدَمِ التَّعارُض بَيْنَهُمَا، وتكثيرًا لِلْمَعَاني القُرآنيَّةِ، وأنَّ المعنى: أنزل مِنَ السَّماء ماءً عظيمًا في ذاتِهِ لكثرة منافعه، ومع ذلك هو بعضٌ من نِعَمِهِ سُبحانه على خلقِهِ.

التَّعْبِيرُ بِالثَّمَرَاتِ دُونَ الثِّمَارِ أَوِ الثَّمَرِ:

جاء التَّعبيرُ بـ ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ في قوله سبحانه: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ دون (الثِّمَارِ) أو (الثَّمَرِ)، مع أنَّ الأول جمعُ تصحيحٍ وهو من جموع القلَّةِ، بخلاف الجَمْعَيْنِ الآخرَين فَهُمَا مِن جموع الكثرةِ، والواقع أنَّ الخارجَ بسبب الماء: ثمارٌ كثيرةٌ، وذلك لوجهين[2]:

كَثْرَةُ ثِمَارِ الْجَنَّةِ فالثمراتُ تفيدُ من الكثرة ما لا تُفيدُه الثِّمار

الأوَّلُ: أنَّ المقصودَ بالثَّمرات: جماعةُ الثَّمرة؛ أي: أنَّ واحدَ الثَّمراتِ هي: الثَّمرة التي يُراد بِهَا الثِّمار، وبناءً على هذا، فـ(الثَّمرات) مشتملةٌ على أفرادٍ، وكلُّ فردٍ يشتمل على ثمارٍ، وعَلَيْهِ فَإِنَّ (الثَّمرات) تُفيد مِنَ الكَثْرَةِ ما لا تفيده (الثِّمار) أو (الثَّمَر) وإن كانت من جموع القِلَّة.

الثَّاني: أنَّ الجمعَ المحلَّى باللَّام خارجٌ عن حَدِّ القِلَّةِ، فلا يتعيَّنُ إرادة جمع القلَّة من لفظ (الثَّمرات).

إِظْهَارُ الِاسْمِ الْأَحْسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾ زِيَادَةً فِي التَّقْرِيرِ وَتَعْلِيلًا لِلْحُكْمِ بِوَصْفِ الْأُلُوهِيَّةِ:

إظهار لفظ الجلالة للتقرير وتعيينه بالذّات بعد تعيينه بالصفات

في قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ إظهارٌ في موضع

(1) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/132.

(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/94، والطِّيبيّ، فتوح الغيب: 2/306-307، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/62.

الإضمار؛ إذْ مُقْتَضَى الظَّاهر أن يقال: فلا تجعلوا لَهُ أندادًا؛ والنُّكْتَةُ في ذلك: زيادةُ التَّقْرير؛ لِتَعْيِين المَعْبُودِ بالذَّاتِ بعد تعيينهِ بالصِّفات[1].

وفيه تعليلٌ لِلْحُكْمِ بوصْفِ الألوهِيَّة، واستحالة الشَّرِكَةِ[2].

نُكَتُ حَذْفِ مَفْعُولَيْ (عَلِمَ):

الـمُخَالَفَةُ مَعَ الْعِلْمِ أَقْبَحُ مِنَ الـمُخَالَفَةِ مَعَ الجَهْلِ

وحُذِف مفعولا (عَلِمَ) من قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وفي ذلك طَرِيقَتَانِ[3]:

إحداهما: أَنْ يُقَدَّر بحسب المقام، والمعنى: والحال أَنَّكُم تعلمون أَنَّهُ لا يُمَاثِلُه شيءٌ.

والأخرى: أن يُنَزَّل الفعلُ المُتَعَدِّي منزلَةَ الفعلِ اللَّازم، والتَّقدير: والحال أَنَّكُمْ مِن أهل العلم والمعرِفَةِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/62، والآلوسّي، روح المعاني: 1/192.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/192.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 1/193.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الأول، من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة [إشراف مجمع القرآن الكريم،
قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 1 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-52-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 1 : من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-52-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9609262 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»